## المبحث الثاني

## سفانة بنت حاتم الطائي ولغة المروءة

تحت عنوان: (وأما الذين انتهىٰ إليهم الجود في الجاهلية) ذكر منهم حاتم بن عبد الله الطائي: «ويكنىٰ أبا سفانة وأبا عدِي وكان يسير في قومه بالمِرْبَاع والمِرْبَاع رُبْع الغنيمة وكان ولده عدِي يعادِي النبي ﷺ، فبعث النبي ﷺ عليًّا إلىٰ طيىء فهرب عدِي بأهله وولده ولحق بالشام وخلف أخته سفانة فأسرتها خيل رسول الله ﷺ، فلما أُتِي بها إلىٰ النبي ﷺ قالت: يا محمد هَلَكَ الوالد، وغاب الوافد فإن رأيت أن تُخَلِّي عنِّي، ولا تُشْمِتْ بي أحياء العرب! فإنَّ أبي كان سيد قومه، يفك العاني، ويقتل الجاني، ويحفظ الجار، ويحمي الذِّمار، ويُفرِّج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ويحمل الكَلَّ، ويعين علىٰ نوائب الدهر، وما أتاه أحد في حاجه فردَّه خائبًا، أنا بنت حاتم الطَّائي! فقال لها النبي ﷺ هذه صفات المؤمنين حقًّا، لوكان أبوك مسلمًا لترحَّمْنَا عليه. خَلُّوا عنها، فإنَّ أباها كان يحبُّ مكارم الأخلاق. وقال فيها: ارحموا عزيزًا ذلَّ، وغنيًّا افتقر، وعالمًا ضاع بين جُهَّال. فأطلقها ومَنَّ عليها. فاستأذنته في الدُّعاء له، فأذِنَ لها، وقال لأصحابه: اسمعوا وعُوا: فقالت: أصاب الله ببرِّك مواقعه، ولا جعل لك إلىٰ لئيم حاجة، ولا سلب نعمة عن كريم قوم، إلا وجعلك سببًا في ردِّها عليه. فلما أطلقها رجعت إلىٰ قومها فأتت أخاها عدِيًا -وهو بدومة الجندل- فقالت له: ياأخي إيت هذا الرَّجل قبل أن تعلَقَكَ حبائِلُه، فإنِّي قد رأيت هدْيًا ورأْيًا سيغْلِب أهل الغلبة، ورأيت خصالاً تعجبني: رأيته يحبُّ الفقير، ويفكُّ الأسير، ويرحم الصغير، ويعرف قدر الكبير، وما رأيت أجود ولا أكرم منه ﷺ وإنِّي رأيت أن تلحق به، فإن يك نبيًّا فللسابق فضلُهُ، وإن يك مَلِكًا فلن يذل في عزِّ اليمن ...»[1].

(1) المستطرف في كل فن مستظرف. أبو الفتح الإبشيهي. تحقيق. مفيد محمد قميحة 1/ 367، 368- دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية 1406هـ-1986م. وينظر: خزانة الأدب 3/ 122.

إذا أردت أن تجسِّد الكرم بكل أشكاله والنُّبل بجميع أنواعه فتعرَّف علىٰ شخصية حاتم الطائي الذي صار مضرب الأمثال في كل زمان ومكان وإن كان العصر الجاهلي مسقط رأسه وعنوان حياته، وسفانة ابنته تعتزُّ بذلك وتفخر، فالسَّخاء والمروءة والنَّجدة صفات قلَّ مَنْ يتعرَّف علىٰ خصائصها ويصل إلىٰ إدراك أبعادها خاصَّة أنَّها عنده لم تكن محكومة بدين أو شريعة وإنَّما كانت محكومة بعادات وتقاليد. وعندما ترىٰ هذا البِرِّ قد ارتقىٰ إلىٰ عنان السَّماء في الأصول حتمًا سيصيب الفروع منه النَّفحات شاءت أم أبت، وكانت سفانة ابنة حاتم الطائي من هذه الفروع التي تربَّت في هذا البيت وسكنت بين جنباته، واستنشقت عبير الكرم واستيقظت علىٰ أريجه، ولم تكن في هذا المقام محل اختبار لتجسيد صورة أبيها أو وقوعها في أسر البخل والشُّح، وإنَّما المقام هنا مقام استعطاف واسترحام تجسده بلغة هادئة عنوانه المروءة، تجمع فيه فصاحة السَّنوات وغزارة الكلمات وتجميل العبارات، تقصد التَّعبير قصدًا ولا يأتيها عفوًا، وإنَّما تدرك أبعاد كل حرف ومدلول كل كلمة وعنوان كل عبارة، وذلك بأسلوب السَّجع القريب إلىٰ النُّفوس -كما أسلفنا-، حيث تقع في الأسر مع مجموعة من قومها فلم تُقدِّم القرابين ولم تعرض الدَّراهم والدَّنانير، وإنما قدَّمت الأسلوب الجميل والكلام الطَّيب الذي يأخذ بالألباب ويحيط بمجامع القلوب.

وقد اعتمدت سفانة في حوارها وعرض مقالتهاعلىٰ الأسلوب الخبري في غالب الأحيان؛ وذلك لأنَّه أسلوب يعتمد علىٰ العرض والتفصيل الذي يحتاج من المخاطب إلىٰ تحليل، وإن ضمنت مقالتها بعضًا من الأسلوب الإنشائي فهذا في النادر لم أجد له مثالاً إلا النَّهىٰ في قولها: ولاتشمتْ بي أحياء العرب.

فتبدأ بألفاظ وعبارات الاسترحام وتختم بألفاظ التَّحذير وعرض المكارم حتىٰ يتحقق الهدف وهذا ما كان.

وعندما تقرأ الحوار وأسلوب الخطاب بينها وبين محمد رسول الله ﷺ، وتقف مع الكلمات وتسجيل العبارات وتنظر في البداية والوسط والختام ترىٰ أن يقسَّم إلىٰ خمسة أقسام:

**القسم الأول: ألفاظ الاسترحام**

اقتصرت سفانة في هذا القسم علىٰ أربعة ألفاظ وجملتين لخصت فيه حالها وحال قومها وكأنَّها كانت تركب جوادًا سريعًا تستطيع من خلاله الكرَّ والفرَّ ولكن ما لبث أن ساخت أقدامه في الرِّمال فأصبح أسيرًا يرجو الرَّحمة ويخاف العذاب، فقدَّمت بين يدي رسول الله ﷺ هذه الكلمات:

1- هلك وتعني: مات.

2- الوالد: الأب.

3- غاب: الغَيْبَ: ما غاب عن العيون، سواء كان مُحَصَّلاً في القلوب، أو غير مُحَصَّل.

4- الرافد: هو الذي يلي المَلِك ويقوم مقامه إذ غاب[1].

فقد فقدت كل شيء وأناخت بعيرها من كثرة الهزال والضَّعف إن كان له الآن وجود، حيث قدَّمت هلاك الوالد مصدر الرِّعاية والعناية إضافة إلىٰ أنَّه عنوان القوَّة والاعتزاز بالنَّفْس، وعَبَّرَت بالوالد لأنَّه يمثل الأبُوَّة الحقيقيَّة، بخلاف التَّعبير بالأبِّ فقد يأتي لدلالات أخرىٰ غير ذلك، إضافة إلىٰ أنَّ «(الأب): يطلق ويراد به الجانب العقلي في الإنسان وما له من تأثير تربوي في التنشئة والسلوك، أما (الوالد) فيطلق ويراد به الجانب العاطفي وما له من تأثير روحي»[2]، فناسب المقام هنا؛ لأنَّه مقام عطف واسترحام، ثم غياب الرَّافد الذي يدافع عنها وعن قومها وعندئذ

(1) ينظر: لسان العرب (هـ ل ك) 6/ 4686، (و ل د) 6/ 4914، (غ ي ب) 5/ 3322، (ر ف د) 3/ 1687.

(2) الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق د. محمد نور الدين المنجد ص144- دار الفكر- دمشق - سورية - الطبعة الأولىٰ 1422هـ-2000م.

فمن يكون لها الآن نصير إلا هذه الكلمات التي تحملها في ذاكرتها وتسجِّل من خلالها مشاعر ألمها وحزنها.

**القسم الثاني: ألفاظ الطَّلَب**

تنطلق سفانة بعد ذلك إلىٰ مقصدها وهدفها حيث لم تطل الكلام ولم يطب لها الإطناب في هذا المقام؛ لأنَّها من بيت تعلَّم أن يكون عزيزًا ولم يفكِّر يومًا ما أن يكون رهينًا أو حبيسًا فاختصرت ذلك أيضًا في عبارتين أولهما: (فإن رأيت أن تُخَلِّي عني)، والأخرىٰ: (ولا تُشْمِتْ بي أحياء العرب) فتُخَلِّي من خَلا المكان والشيء يخلوا خُلُوًّا وخلاءً وأخلىٰ: إذا لم يكن فيه أحد ولا شيء فيه، وهو خال. وتُشْمِتْ: الشماتة: فَرَح العدو؛ وقيل: الفرح ببليَّة العدو؛ وقيل: الفرح ببليَّة تنزل بمن تعاديه[1].

فقد تعلَّمت سفانة العزَّة حتىٰ وإن كانت في موضع الإنكسار، والليل وإن كانت أنفاسه تلتهب فإنَّ الصبر فيه سماحة والرِّفق بالنَّفس فيه تكرمًا، فما زالت تحتفظ بكبريائها وإن كان المقام لا يسمح بذلك.

**القسم الثالث: ألفاظ النَّجدة والمروءة**

انتقلت بعد ذلك للَّتعبير عن نفسها ولكن ليس من خلال بصماتها وسرد تاريخ حياتها ولكن من خلال التَّعريف بأبيها حتىٰ تُعَرِّف النبي ﷺ بنفسها، فهي ابنة هذا الرَّجل الذي أفاضت في أوصافه وأطنبت في عدِّ جميع خصاله فوجدنا سيلاً جرارًا من الألفاظ وكثيرًا من الجمل والعبارات، وكأنَّها تحاول أن تُصَوِّر الأحداث تصويرًا دقيقًا بين ما كانت عليه وما هي عليه الآن، فتقف وتقول بأنَّه كان وكان ومنها هذه الكلمات:

1- سيد: السَّيد: يطلق علىٰ الرَّب والمالك، والشَّريف، والفاضل والكريم

(1) ينظر: لسان العرب (خ ل ي) 2/ 1254، (ش م ت) 4/ 2319.

والحليم ومُحْتَمِل أذىٰ القوم، والزَّوج والرئيس والمُقَدَّم. وسَيِّد كل شيء: أشرفه وأرفعه.

2- العاني: الأسير.

3- الجاني: الجناية: الذَّنْب والجُرْم وما يفعله الإنسان مما يوجب عليه العقاب أو القصاص في الدنيا والآخرة، والمعنىٰ أنَّه لا يطالب بجناية غيره من أقاربه وأباعده، فإذا جني أحدهم جناية لا يطالب بها الآخر.

4- الذِّمار: ذِمَار الرَّجل: هو كل ما يلزمك حفظه وحياطته وحمايته والدفع عنه، وإن ضَيَّعه لزمه اللوم.

5- يفرِّج: الفَرَجُ: انكشاف الكَرْب وذهاب الغمِّ.

6- المكروب: الكرب: الحزن والغمُّ الذي يأخذ بالنفس.

6- الكَلُّ: اليتيم. والكَلُّ: الذي هو عيال وثِقْل علىٰ صاحبه.

6- نوائب: النائبة: المصيبة، واحدة نوائب الدهر. والنائبة: النازلة.

7- خائبة: خاب يخيب خَيْبَة: حُرِمَ، ولم يَنَلْ ما طلب. والخَيْبَة: الحِرْمان والخُسْران[1].

إضافة إلىٰ أوصاف أخرىٰ ليست في حاجة إلىٰ المعجم لشهرتها وهي أنَّه كان يطعم الطعام ويفشي السَّلام.

أنظرت إلىٰ صفحة من صفحات التاريخ تُحَدِّثُكَ وتُعَلِّمُكَ هذه السِّمات بهذا العرض الدَّقيق والوصف العميق، إنَّها كلمات مكلوم اخترقت حياته الأزمات وسيطرت عليه النَّوائب والخطوب فسَطَّرَ العزَّ والمجد القديم بعبارات الفخر والاعتزاز رغبة في مراعاة مقتضىٰ الحال وأخلاق السَّماح والعفو عند المقدرة.

(1) ينظر: لسان العرب (س و د) 3/ 2144، 2145، (ع ن ي) 4/ 3144، (ج ن ي) 1/ 707، (ذ م ر) 3/ 1515، (ف ر ج) 5/ 3370، (ك ر ب) 5/ 3845، (ك ل ل) 3919، (ن و ب) 6/ 4569، (خ ي ب) 2/ 1297.

**القسم الرابع: ألفاظ الدُّعَاء**

هذا الدُّعاء اختصرته في كلمات بدأته بالبِرِّ وأنهته بالنِّعمة، ولكنَّه البِرُّ الذي يصيب موقعه، والنِّعمة التي تعود بعد زوالها إلىٰ كريم يستحق أن تُسْدَىٰ إليه، ثم تجعل ما بينهما دعاء بعدم الحاجة إلىٰ مَنْ سيطرت عليهم أنفسهم فشحَّت قلوبهم قبل أن تشحَّ أيديهم. ومن ألفاظه: البِرُّ: الخير. واللئيم: الدنيء الأصل الشَّحيح النَّفْس[1].

**القسم الخامس: ألفاظ التَّحذير ثم عرض المكارم**

بدأت سفانة هذه المجموعة بعبارة أمرية تحذيرية واحدة حتىٰ لا يكون كثرة التَّحذير مدعاة للعناد، وهي: (إيت هذا الرَّجل قبل أن تعلقك حبائله)، والحِبَالَة: التي يُصَادُ بها، وجمعها حبائل، ويكنىٰ بها عن الموت. والحِبالة: المِصْيَدة مما كانت[2]، ثم بدأت في عرض المكرمات بأسلوب تفوَّقت به علىٰ نفسها بدأته بالهَدْي: وهو السِّيرَة والهيئة والطريقة[3]، ثم الرأي الذي لا محالة أن يجد له منازع، ثم بدأت تعدِّد أوصاف النبي ﷺ مع أنَّها لم تؤمن به بعد ولم تحاوره إلا لحظات ولكنَّها فراسة المرأة العربية التي تستطيع أن تميز بين الطَّيب والخبيث، وكأنَّ هذه الأوصاف كانت مقدمة لإيمانها وإيمان أخيها فماذا تفعل وعساها أن تفعل أمام رجل يحبُّ الفقير، ويفكُّ الأسير، ويرحم الصَّغير، ويعرف قدر الكبير، وما رأت أجود ولا أكرم منه ﷺ، وكانت جرأة سفانة وشجاعتها سببًا لنجاتها ونجاة قومها، كما أنَّ جرأتها كانت سببًا في استدرار عطف الرَّسول ﷺ، الأمر الذي ساقها وأخاها إلىٰ نور الإسلام الوضَّاء، ولو أنها جبنت ولم تنطق ببنت شفه لتعرضت للهلاك هي وقومها ولما حظيت بشرف الإسلام، كما تبيِّن لنا هذه اللوحة

(1) ينظر: لسان العرب (ب ر ر) 1/ 252، (ل أ م) 5/ 3976.

(2) السابق (ح ب ل) 2/ 760.

(3) السابق (ه د ي) 6/ 4640.

الأدبية صفات العربي الكريم متجلية في شخصية حاتم الطَّائي، وكيف أنَّه يتصف بسمات كريمة يدعو إليها الإسلام ... كما تعبِّر المقطوعة عن شخصية سفانة الاجتماعية وما تتميَّز به من نظرات ثاقبة، ولمحات نفاذة، وقدرة أدبية علىٰ صوغ أسلوب الاستعطاف الذي ملك قلب الرَّسول، واستولىٰ علىٰ وجدانه»[1].

(1) أدب النساء في الجاهلية والإسلام د. محمد بدر معبدي ص44، 45 - القسم الأول - النثر - مكتبة الآداب - المطبعة النموذجية.